قراءة التّراث البلاغيّ العربيّ في ضوء نظريّة التّواصل اللّغويّ: يوسف بن أبي بكر السّكاكيّ أنموذجا

Reading the Arabic rhetorical heritage in the light of the theory of linguistic communication: Yusuf bin Abi Bakr al-Sakaki as a model

د. خالد حميدات [1*]

[1] جامعة البليدة -02- لونيسي علي (الجزائر) .

تاريخ الاستلام : 30 جويلية 2023 ؛ **تاريخ المراجعة :** 04 ديسمبر 2023 ؛ **تاريخ القبول :** 27 ماي 2024

ملخص:

إنّ بحثنا عن البدايات الأولى لنظريّة التّواصل اللّغويّ، يقودنا –ولا شكّ- إلى أعمال بلاغيّين أفذاذ، نجد من خلال تأمّلنا لأعمالهم آراءً وأفكارا هامّة عن التّواصل، كانت اللّبنات الأساسيّة الّتي جعلت التّواصل علما قائما بذاته. وإذا كانت وظيفة اللّغة الأساسيّة هي التّواصل ضمن مجتمع واحد، أو من مجتمع إلى آخر، فإنّ علماءنا القدماء قد عنوا بالنّظام التّواصليّ أكبر عناية، وأولوه قسطا وافرا من البحث والدّراسة، مبيّنين أهمّيّته في الحياة الإنسانيّة.

وقد لا نجانب الصّواب إن قلنا إنّ النّظريّاتِ اللّسانيّةَ الحديثةَ موجودة في أحشاء التّراث اللّغويّ العربيّ، وهي تظهر من خلال مباحث النّحو والصّرف والمعجم والأصوات والبلاغة...، وهذه المباحث تشكّل الجانب النّظريّ والتّطبيقيّ لنظريّة التّواصل اللّغويّ.

وتهدف هذه الورقة البحثيّة إلى إبراز جهود عالم عربيّ أسهم في وضع أسس النّظريّة التّواصليّة بمفهومها الحديث، هو يوسف بن أبي بكر السّكاكيّ.

الكلمات المفتاحية: نظريّة التّواصل اللّغويّ؛ التّراث العربيّ البلاغيّ؛ السّكاكيّ.

Abstract:

Our search for the first beginnings of the theory of linguistic communication leads us - no doubt - to the works of distinguished rhetoricians. Through our reflection on their works, we find important opinions and ideas about communication, which were the basic building blocks that made communication a science in itself. And if the main function of the language is communication within one society, or from one society to another, then our ancient scholars paid great attention to the communicative system, and gave it a great deal of research and study, showing its importance in human life.

We may not be wrong if we say that modern linguistic theories exist in the bowels of the Arab linguistic heritage, and they appear through the investigations of grammar, morphology, lexicon, sounds, rhetoric..., and these investigations constitute the theoretical and practical side of the theory of linguistic communication.

This research paper aims to highlight the efforts of an Arab scholar who contributed to laying the foundations of communicative theory in its modern sense, Yusuf ibn Abi Bakr al-Sakaki.

Keywords: The theory of linguistic communication; the rhetorical heritage of the Arabs; al-Sakaki..

*Corresponding author: e-mail: 3ILIYIN@mail.com .

1- مقدمة:

لم يظهر التّواصل كعلم جديد في العصر الحديث، بل إنّه قديم، بدأ مع نزوع الإنسان إلى دراسة اللّغة، ومحاولة اكتشاف خصائصها، والتّواصل بين الأفراد والجماعات هو من أهمّ أسباب استمرار حياتهم وبقائها، فمن المتعذّر أن يعيش الإنسان بمنأى عن محيطه وبيئته وبني جنسه. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعارفوا**﴾ [**الحجرات13**]؛ هذه الآية تجعل من التّواصل عمليّة للتّعارف والتّفاعل بين البشر قاطبة، لا يحدّها مكان، ولا تقتصر على شعب أو قبيلة بعينها.

وإنّ بحثنا عن البدايات الأولى لنظريّة التّواصل اللّغويّ، يقودنا –ولا شكّ- إلى أعمال بلاغيّين أفذاذ، نجد من خلال تأمّلنا لأعمالهم آراءً وأفكارا هامّة عن التّواصل، كانت اللّبنات الأساسيّة الّتي جعلت التّواصل علما قائما بذاته. ومن الصّعب جدّا الإحاطة بمعظم وجهات نظرهم، لاتّساع موضوع التّواصل، وارتباطه بمجالات معرفيّة كثيرة، لذا فقد اكتفينا بأن نعرض لأحد أهمّ تلك النّظريّات والآراء والنّماذج التّواصليّة عند عالم عربيّ جليل، والغاية من ذلك الإسهام في تأصيل النّظريّة التّواصليّة اللّغويّة لديه، وبيان أهمّ ملامحها وخصائصها وسماتها اللّسانيّة.

ويتحدّد بحثنا في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما المقصود بالتّواصل اللّغويّ؟
- ما مدى إسهام البلاغيّين العرب القدامى في تأسيس نظريّة التّواصل اللّغويّ بمفهومها الحديث؟
- ما هي أهمّ جهود السّكّاكيّ التّواصليّة الّتي سبق بها العلماء المحدثين؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة سوف نعالج ما يأتي:

- مفهوم التّواصل اللّغويّ.
- التّواصل اللّغويّ عند السّكّاكيّ في ضوء اللّسانيّات الحديثة.

2- مفهوم التّواصل اللّغويّ:

يعدّ التّواصل جوهر العلاقات الإنسانيّة، وهو من أقدم أشكال النّشاط الإنسانيّ؛ ذلك أنّ البشر يفعلونه كلّ يوم، ليعبّروا عن ذواتهم واحتياجاتهم، فبدونه تتعطّل مصالحهم، وتنقطع علاقاتهم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وتتوقف حضارتهم، إذ إنّه أصل في بناء الحضارة، وهو "أعجب شؤون الإنسان قاطبة" (شرف، 2003)؛ لأنّه "فطرةٌ فطر الله النّاس عليها، وسنّة كونيّة لا تنمحي، ولا تتحول، ولا تتبدّل، وضرورة تاريخيّة لا يتوقّف حراكها، ولا تتقطّع مساراتها" (جيلالي، 2014).

وقد كان التّواصل في بداية الحياة بسيطا وسهلا كبساطة الحياة وسهولتها، ولأنّ الإنسان اجتماعيّ وتواصليّ بطبعه، يميل إلى الاندفاع إلى غيره والتعايش معهم، وينفر من الفرديّة، ويتجنّب العزلة، فإنّ النّاس كانوا يتواصلون في مناطق جغرافيّة محدودة، وفي حدود بشريّة ضيّقة، من أجل تحقيق غايات بسيطة، ثمّ تطوّر التّواصل مع ظهور الحضارات وتطوّرها، وارتقاء الفكر الإنسانيّ، وقد جعلت الحاجة إليه الإنسانَ منذ خَلقه يبتكر في كلّ حين آلياتٍ وأساليبَ جديدةً. فالتّواصل إذًا: "حالة اجتماعيّة تتحقّق من خلال أنساق متعدّدة،

ينسج الأفراد داخلها سلسلة من العلاقات من طبائع مختلفة: اللّغة، والنّسب، والجوار، والتّصاهر، والحاجات الاقتصاديّة" (بنكراد، 2004).

2-1- التّواصل في المعاجم اللّغويّة:

إنّ محاولة ضبط المفاهيم والمصطلحات تعدّ مدخلا مهمّا لأيّ حقل معرفيّ. وبعد اطّلاعنا على بعض معاجم اللّغة، تبيّن أنّ مادّة "وصل" في اللّغة واسعة المعاني معدّدة الدّلالات. وأهمّ ما وقفنا عليه:

- مختار الصّحاح:

قال أبو بكر الرّازي: "و ص ل: (وَصَلْتُ) الشَّيْءَ مِنْ بَابِ وَعَدَ وَ(صِلَةً) أَيْضًا. وَ(وَصَلَ) إِلَيْهِ يَصِلُ (وُصُولًا) أَيْ بَلَغَ. وَ(وَصَلَ) بِمَعْنَى (اتَّصَلَ)؛ أَيْ دَعَا دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ، يَا لَفُلَانٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ [النّساء: 90]؛ أَيْ يَتَّصِلُونَ. وَ(الْوَصْلُ) ضِدُّ الْهِجْرَانِ. وَالْوَصْلُ أَيْضًا وَصْلُ الثَّوْبِ وَالْخُفِّ. وَبَيْنَهُمَا (وُصْلَةٌ)؛ أَيِ اتِّصَالٌ وَذَرِيعَةٌ. وَكُلُّ شَيْءٍ اتَّصَلَ بِشَيْءٍ فَمَا بَيْنَهُمَا وُصْلَةٌ، وَالْجَمْعُ (وُصَلٌ)..." (الرازي و الشيخ محمد، 1999)، وَ"(التَّوَاصُلُ) ضِدُّ التَّصَارُمِ، وَ(وَصَّلَهُ تَوْصِيلًا)، إِذَا أَكْثَرَ مِنَ الْوَصْلِ. وَ(وَاصَلَهُ مُوَاصَلَةً) وَ(وِصَالًا)، وَمِنْهُ (الْمُوَاصَلَةُ) فِي الصَّوْمِ وَغَيْرِهِ. وَ(الْمَوْصِلُ) بَلَدٌ" (الرازي و الشيخ محمد، 1999).

- معجم العين:

قال الخليل بن أحمد: "وصل: كلُّ شيءٍ اتَّصَلَ بشيءٍ فما بينَهما وُصْلَةٌ" (الفراهيدي و المخزومي، 1993).

- لسان العرب:

قال ابن منظور: "وصل: وَصَلْت الشَّيْءَ وَصْلًا وَصِلَةً، والوَصْلُ ضِدُّ الهِجْران. ابْنُ سِيدَهْ: الوَصْل خِلَافُ الفَصْل. وَصَلَ الشيءَ بِالشَّيْءِ يَصِلُه وَصْلًا وَصِلَةً وصُلَةً؛ الأَخيرة عَنِ ابْنِ جِنِّي... ووَصَّلَهُ: لأَمَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾؛ أَي وَصَّلْنا ذِكْرَ الأَنْبياء وأَقاصِيصَ مَنْ مَضَى بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرون. واتَّصَلَ الشَّيءُ بِالشَّيْءِ: لَمْ يَنْقَطِعْ؛ وَقَوْلُهُ أَنشده ابْنُ جِنِّي:

قامَ بِهَا يُنْشِدُ كُلَّ مُنْشِدِ ... وايْتَصَلَتْ بمِثْلِ ضَوْءِ الفَرْقَدِ

إِنّما أَراد اتَّصَلَتْ، فأَبدل مِنَ التَّاءِ الأُولى يَاءً كَرَاهَةً لِلتَّشْدِيدِ" (ابن منظور، 1994).

"ووَصَّلَه إِليه وأَوْصَلَه: أَنهاهُ إِليه وأَبْلَغَهُ إِياه. وَفِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّن: أَنه لَمَّا حمَل عَلَى العدُوِّ مَا وَصَلْنا كَتِفَيْه حَتَّى ضرَب فِي الْقَوْمِ أَي لَمْ نَتَّصِل بِهِ وَلَمْ نَقْرُب مِنْهُ حَتَّى حمَل عَلَيْهِمْ مِنَ السُّرْعة" (ابن منظور، 1994).

- القاموس المحيط:

قال الفيروز آبادي: "وصَلَ الشّيءَ بالشيءِ وَصْلاً وصُلَةً، بالكسر والضم، ووصَّلَهُ: لَأَمَهُ... والوُصْلَةُ، بالضّمّ: الاتِّصالُ، وكُلُّ ما اتَّصَلَ بشيءٍ فما بينهما: وُصْلَةٌ" (الفيروز آبادي، 2005).

- قاموس محيط المحيط:

قال بطرس البستانيّ عن التّواصل: هو "ضدّ الانفصال، ويُطلق على أمرين: أحدهما اتّحاد النّهايات، وثانيهما كون الشّيء يتحرّك بحركة شيء آخر" (البستاني، 1987).

- معجم المصطلحات اللّغويّة:

ذكر خليل أحمد خليل في معجمه أنّ كلمة (تواصل) تعني: "إبلاغ، اتّصال، تخاطب، مخاطبة، توصيل..." (أحمد خليل، 1995).

- ويدلّ لفظ (التّواصل) لدى (طه عبد الرّحمان) على ثلاثة معان مختلفة (عبد الرحمان، 1994):

- نقل الخبر، ويُصطلح عليه بالوصل.
- نقل الخبر مع اعتبار مصدره الّذي هو المتكلّم، و يصطلح عليه بالإيصال.
- نقل الخبر مع اعتبار مصدره؛ الّذي هو المتكلّم، ومقصدِه الّذي هو المستمع، و يصطلح عليه بالاتّصال.

ويتبيّن من هذا الكلام أنّ التّواصل عمليّة لها معان متعدّدة، غير أنّ المعنى الّذي نقصده في بحثنا يتّفق مع المعنى الثّالث الّذي يتضمّن المشاركة في تبادل الرّسائل بين المرسل والمرسل إليه.

من خلال التّعريفات السّابقة لمفهوم التّواصل في المعاجم اللّغويّة، وصلنا إلى ما يأتي:

- كلمتا (اتّصال وتواصل) في اللّغة العربيّة لهما جَذر واحد هو (وصل)، وهي كلمة متداولة بكثرة في التّراث اللّغويّ العربيّ.
- التّواصل كلمة مشتقّة من الجذر "و ص ل"، وهو يفيد الاقتران والاتّصال والاتّحاد والصّلة والتّرابط والالتئام والتّتابع والإبلاغ، فهو ضدّ التّصارم والانفصال والانقطاع والابتعاد والهجران، وهو يدلّ في عمومه على وجود صلة ورابطة بين شيئين، كما يعني الوصول إلى الشّيء أو بلوغه والانتهاء إليه.
- التّواصل في أصله الاشتقاقيّ يعني أن يكون شيء ما عامّا ومشتركا بين عدّة أفراد، فهو يفيد الانتقال من الفرديّ إلى الجماعيّ، وهذا راجع إلى طابعه الإنسانيّ الاجتماعيّ، وهو بذلك "يغدو شرطاً مؤسّسا لكل حياة اجتماعيّة" (أفاية، 1993).
- أتى التّواصل على صيغة (تفاعل)، التّي تفيد المشاركة، ومنه قول الشّاعر من الكامل:

واصل خليلك ما التّواصل ممكن ... فلأنت أو هو عن قليل ذاهبُ (السمين الحلبي، 1994).

وعليه، فليس من السّهل تحديد مدلول "التّواصل"، لدخوله في علاقة اشتراك وترادف مع عدّة مفردات أخرى، سواء من حيث الجَذرُ، أو من حيث الحقلُ الدّلاليّ، ومثال ذلك: إعلام، حوار، تحاور، إبلاغ، إخبار، تخاطب، إيصال، وصل، اتّصال... (أوكان، 2000)، وهذا ما جعل المفهوم اللّغويّ للتّواصل يتّصف بشيء من الغموض.

2-2- المفهوم الاصطلاحيّ للتّواصل اللّغويّ:

تعدّ اللّغة أهمّ آليّات التّواصل وتبادل المعارف بين البشر، وهذا ما جعل كلّ تواصل بينهم يُسمّى تواصلا لغويّا، وعلى الرّغم من ذلك، يظلّ التّواصل حقلا معرفيّا واسعا تحتوِشُه العديد من التّخصّصات وحقول المعرفة (اللّغويّة، التّربويّة، الإعلاميّة، النّفسيّة، الاجتماعيّة، الفلسفيّة...)، لذا فقد اعترض المشتغلين والباحثين صعوبةٌ كبيرة عند محاولتهم ضبط تعريف شامل للتّواصل، وهو ما تسبّب في اختلافات نظريّة بينهم، فكان من

المتعذّر حصره داخل مجال محدّد؛ "فاللّسانيّ ينظر إلى اللّغة، وعالم النّفس إلى الذّات المتحدّثة، وعالم الاجتماع إلى الجماعة النّاطقة، والمنطقيّ إلى المرجع، والتّقنيّ إلى القناة...إلخ" (أوكان، 2001).

وبعد اطّلاعنا على العديد من التّعريفات الاصطلاحيّة للتّواصل اللّغويّ توصّلنا إلى تعريف شامل، يجمع بين هذه التّعريفات، نعرضه في الآتي:

التّواصل اللّغويّ: عمليّة تبادل للمعلومات والأفكار والعواطف والخبرات والمهارات، وكلّ ما يصدر عن الإنسان ويقوم به، بهدف التّفاعل والتأّثير في غيره، والتّفاهم معهم، أو إقناعهم، وهو يحدث بين شخصين على الأقلّ، ويبدأ عندما يرغب شخص ما في التّواصل مع غيره، ممّن لديهم رغبة واستعداد للتّواصل، فيترجم رسالته في رموز مستعملا اللّغة الشّفويّة أو المكتوبة أو الوسائل غير اللّفظيّة، أو يجمع بينها، معتمدا على وسائل بسيطة، أو على وسائل متطوّرة. ليقوم المرسل إليه بعد ذلك بفكّ تشفير الرّسالة وفهمها، وقد تتوقّف عمليّة التّواصل هنا، أو قد تبدأ من جديد حين يصبح المرسل إليه مرسِلا.

وهو عمليّة شاملة واسعة، لا تقتصر على مجال بعينه، أو فئة بعينها، أو على وسيلة دون غيرها، لذا يُباح استخدام كلّ ما من شأنه إيصالُ ما يريد الباثّ إيصاله، على أن يتقيّد ببعض الشّروط والأخلاقيّات الّتي توضّح رسالته أكثر، وتحول دون نفور المتلقّي/ المتلقّين منه، وعليه أن يراعي الظّروف المحيطة بالتّواصل.

3- نظريّة التّواصل اللّغويّ عند السّكّاكيّ في ضوء اللّسانيّات الحديثة:

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ثمّة نصوصا كثيرة في التّراث العربيّ البلاغيّ تتعلّق بخاصّيّة التّواصل لدى الإنسان، وحاجته الملحّة إليه، وسبب ذلك أنّ اللّغة ارتبطت في تراثنا بوضعيّة الإنسان في الكون وبوظيفته فيه (عقاق، 2018).

وفي ما يأتي سنذكرُ أهمّ هذه النّصوص لدى السّكّاكيّ، ومن خلال تحليلها ومناقشتها سنحاول تأصيل نظريّة التّواصل اللّغويّ لديه، واستنباط أهمّ الأفكار المتعلّقة به.

يعرّف السّكاكيّ البلاغة انطلاقا من حسن التّركيب فيقول: "البلاغة هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواصّ التّراكيب حقّها، وإيراد أنواع التّشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها -أعني البلاغة- طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الّذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات، ثمّ تأخذ في التّزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز، وهو الطّرف الأعلى وما يقرب منه" (السكاكي و زرزور، 1987).

أوّل عنصر من عناصر العمليّة التّواصليّة ذكره السّكاكيّ هو (المتكلّم)، الّذي يؤدّي المعاني، والّتي تمثّل (الرّسالة التّواصليّة)، وأمّا الحدّ الّذي له اختصاص، فيكون من أجل إفهام (السّامع)، بتوفية خواصّ التّراكيب حقّها؛ أي أن "يورد كلّ كلام موافقا لمقتضى الحال" (الجرجاني و أعرضي، 2007)، بلغة سليمة راقية (الشّفرة).

إنّ السّكاكي -بتعريفه السّابق- قد ذكر عناصر العمليّة التّواصليّة الّتي وردت في اللّسانيّات الحديثة، وركّز على ضرورة إتقان المتكلّم لرسالته، وموافقة كلامه للسّياق الّذي يرد فيه، سعيا منه إلى إفهام المتلقّي، وبلوغ أعلى درجات البلاغة.

ولعلّ بإمكاننا تصنيف استعمال أنواع التّشبيه والمجاز والكناية ضمن إستراتيجيّات التّواصل اللّغويّ الّتي يتفنّن المتكلّم بواسطتها في التّعبير، وعلى قدر مهارة المتكلّم في استعمال هذه الإستراتيجيّات تكون بلاغته وقدرته على التّواصل، فقد يتردّى تواصله ليصبح شبيها بتواصل الحيوانات، وقد يرتقي حتّى يكاد يقترب من حدّ الإعجاز.

ويشير السّكاكيّ في تعريفه لعلم المعاني إلى أهمّ شرط ينبغي توفّره لدى المتكلّم، إذ يقول: "اعلم أنّ علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتراكيب الكلام التّراكيبَ الصّادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصّادرة عمّن سواهم..." (السكاكي و زرزور، 1987).

فلا بدّ أن يكون المتكلّم بليغا له تمييز ومعرفة، ولا تَظهر بلاغته هذه في اللّغة في مستواها العادّي، أي في الصّورة النّمطيّة للنّظام النّحويّ، وإنّما تظهر حين يشذّ عنها ويتجاوز دلالاتها البسيطة، بحيث يكون كلامه مطابقا لمقتضى الحال.

ويؤكّد السّكاكي على أنّ الكلام إن لم يكن صادرا عن نيّة من المتكلّم وقصد منه، فلا اعتبار له؛ لأنّ "جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدّرّة الثّمينة، لا ترى درجتها تعلو، ولا قيمتها تغلو، ولا تشترى بثمنها، ولا تجرى في مساومتها على سننها، ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها، والرّاغب فيها خبيرا بمكانها..." (السكاكي و زرزور، 1987).

ويبيّن السّكاكيّ أنّ كلّ متكلّم له أسلوبه المميّز وأداؤه الخاصّ، حسب قوّة خياله وما تمثّل فيه، وحسب معرفته اللّغويّة وقدرته على استعمال الكلام، وما يتمتّع به من إستراتيجيّات خطابيّة، حين يقول: "... فإنّ جميع ما يثبت في الخيال ممّا يصل إليه من الخارج، يثبت فيه على نحو ما يتأدّى إليه ويتكرّر لديه، ولذلك لمّا لم تكن الأسباب على وتيرة واحدة فيما بين معشر البشر، اختلفت الحال في ثبوت الصّور في الخيالات ترتّبا ووضوحا، فكم من صور تتعانق في الخيال، وهي في آخر ليست تتراءى، وكم صور لا تكاد تلوح في الخيال، وهي في غيره نار على علم..." (السكاكي و زرزور، 1987).

كما يشير السّكاكيّ إلى أنّ لكلّ متكلّم "خزانةَ صور" (السكاكي و زرزور، 1987)، تتشكّل انطلاقا من معطيات كثيرة، كالبيئة الّتي يعيش فيها، والمهنة الّتي يزاولها، وهي تؤثّر في ما يستعمله من علامات، ويظهر هذا في ذكره لوصف بعض أصحاب المهن للبدر، "فما يشبّه السّلاحيُّ إلا بالتّرس المذهّب يُرفع عند الملك، ولا يشبّه الصّائغ إلّا بالسّبيكة من الإبريز تفتّر عن وجهها البوتقة، ولا يشبّه البقّار إلّا بالجبن الأبيض، يخرج من قالبه طريّا، ولا يشبّه المعلّم إلّا برغيف أحمر، يصل إليه من بيت ذي مروءة..." (السكاكي و زرزور، 1987).

ولا بدّ للمتكلّم -مع مراعاة حال المتلقّي- أن يراعي مقامات الكلام، و"مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام الشّكر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزية، ومقام المدح يباين مقام الذّمّ، ومقام التّرغيب يباين مقام التّرهيب، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السّؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذّكيّ يغاير مقام الكلام مع الغبيّ، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر..." (السكاكي و زرزور، 1987).

وعلى المتكلّم -كذلك- تنويعُ الكلام تبعا لتنوّع المقامات، ويغنينا عن شرح الكلام السّابق شرحُ السّكاكيّ نفسِه؛ إذ يرى أنّ "ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الّذي نسمّيه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاقَ الحكم، فحسنُ الكلام تجريدُه عن مؤكّدات الحكم. وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسنُ الكلام تحلّيه بشيء من ذلك، بحسب المقتضى ضعفا وقوة..." (السكاكي و زرزور، 1987).

وهنا يأتي الدّور الكبير لإستراتيجيّات الخطاب الّتي يستعملها المتكلّم، وقدرتِه على تبيّن مقامات الكلام وحال المتلقّي، وانتقاء ما يناسب ذلك من الكلام، فالسّكاكي هنا يشترط امتلاك المتكلّم لكفايتين أساسيّتين: هما الكفاية اللّغويّة والكفاية التّواصليّة، وهو يؤكّد على ذلك بقوله: "وجَب عليك أيّها الحريص -على ازدياد فضلك المنتصب لاقتداح زناد عقلك المتفحّص عن تفاصيل المزايا الّتي بها يقع التّفاضل، وينعقد بين البلغاء في شأنها التّسابق والتّناضل- أن ترجع على فكرك الصّائب، وذهنك الثّاقب، وخاطرك اليقظان، ولانتباهك العجيب الشّان، ناظرا بنور عقلك، وعين بصيرتك في التّصفّح لمقتضيات الأحوال في إيراد المسند إليه على كيفيّات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتأتّى بروزه عندك لكلّ منزلة في معرضها، فهو الرّهان الّذي يُجرّب به الجياد، والنّضال الذي يعرف به الأيدي الشّداد، فتعرف أيّما حال يقتضي طيّ ذكره، وأيّما حال يقتضي خلاف ذلك، وأيّما حال يقتضي تعرّفه مضمرا، أو علما، أو موصولا، أو اسم إشارة، أو معرّفا باللّام، أو بالإضافة، وأيّما حال يقتضي تعقيبه بشيء من التّوابع الخمسة والفصل، وأيّما حال يقتضي تنكّره، وأيّما حال يقتضي تقديمه على المسند، وأيّما حال يقتضي تأخيره عنه، وأيّما حال يقتضي تخصيصه أو إطلاقه حال التّنكير، وأيّما حال يقتضي قصره على الخبر" (السكاكي و زرزور، 1987).

ويقول السّكاكيّ في موضع آخر من كتابه (مفتاح العلوم): "...وثمن الكلام أن يوفّى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقّه، وأن يتلقّى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقّه، ولا يقع ذلك ما لم يكن السّامع عالما بجهات حسن الكلام، معتقدا بأن المتكلّم تعمّدها في تركيبه للكلام عن علم منه، فإنّ السّامع إذا جهلها لم يميّز بينه وبين ما دونه، وربّما أنكره، وكذلك إذا أساء بالمتكلّم اعتقاده، ربّما نسبة في تركيبه ذاك على الخطأ، وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدّرجة النّازلة، وممّا يشهد لك بهذا، ما يروى عن علي -رضي الله عنه- أنّه كان يشيّع جنازة، فقال له قائل من (المُتوفّي)؟ بلفظ اسم الفاعل، سائلا عن (المُتوفّى)، فلم يقل: فلان، بل قال:

الله، ردّا لكلامه عليه، مخطّئا إيّاه، منبّها له بذلك على أنّه كان يجب أن يقول: من المتوفّى؟ بلفظ اسم المفعول..." (السكاكي و زرزور، 1987).

والملاحظ أنّ السّكاكيّ يؤثر استخدام مصطلح (السّامع) أو (المخاطَب)، عند حديثه عن المتلقّي؛ لأنّ العرب آنذاك يعتمدون على الرّواية والمشافهة، ولأنّ السّامع كان في الغالب يتّصل مع النّصوص من خلال السّمع مباشرة من أفواه المتكلّمين، أو ممّا يُروَى عن البوادي والحواضر.

ونجد السّكاكي في كلامه الوارد آنفا يشيد بالكلام البليغ، ويؤكّد على أنّ للمتلقّي دورا في نجاح التّواصل اللّغويّ، يكون بتحقيقه لمبدأ (المشاركة والتّعاون)، بأن يعطيَ الكلامَ البليغَ حقّه من الإنصات، وحسن الاستماع، وإظهار القبول له، والإعجاب به، ولا شكّ أنّه بذلك يوطّد علاقته بالمتكلّم، ويجعله يُواصل كلامه بوتيرة أفضل وببلاغة أجمل، وحتّى يحصل ذلك، لا بدّ أن يكون المتلقّي نفسُه ذا كفاية تواصليّة مساوية أو قريبة من كفاية المتكلّم، فيكونَ عالما بإستراتيجيّات الخطاب ومواطن جماله، فيفهم استعمالاتِ المتكلّم ومقاصدَه، وأن يكون ذا كفاية إدراكيّة تأويليّة، ليتأوّل ما يرمي إليه التّأويل الصّحيح، وبدون ذلك قد لا تصل رسالةُ المتكلّم على الوجه المراد، ولا بدّ للمتكلّم -كذلك- من تحرّي حسن التّركيب والاستعمال.

والمثالُ الّذي ذكره السّكاكيّ يبيّن أنّ الخطأ في استعمال السّائل، دفع عليّا -رضي الله عنه- إلى الإجابة على قدر السّؤال، لأنّ المتوفّي هو الله سبحانه، وهنا بيانُ أنّ نجاحَ التّواصل اللّغويّ يحتاج إلى تعاون طرفيه وحضور جميع العناصر الأخرى، وإشارةٌ لطيفة إلى أنّ السّياق قد لا يكفي وحده لتعرّف مقصود المتكلّم، وإن كنّا نجزم أنّ عليّا -رضي الله عنه- كان على دراية بمقصود السّائل، لكنّه استغلّ الموقف، لا ليقلّل من شأن السّائل أو يخطّئه، ولكن ليذكّره بالله تعالى، وأنّه -سبحانه- هو المتوفّي.

لقد اهتمّ السّكاكي بالسّامع، وجعل مراعاة المتكلّم له سببا رئسيّا في نجاح التّواصل اللّغويّ، وتحقيق الإفادة من الكلام، ويقاس ذلك بما يثيره من انفعالات، وردود أفعال، واستحسان أو استهجان من قِبَل السّامع، وهذه القضيّة تدخل حديثا ضمن مباحث التّداوليّة.

ويَعتبِر السّكاكيّ أنّ الكلام يصبح لغوا وباطلا إذا لم يحقّق فائدة دلاليّة لدى السّامع، وهو هنا يقدّم أحد أهمّ مبادئ التّداوليّة، حين يقول: "من المعلوم أن حكم العقل حال إطلاق اللّسان هو أن يفرغ المتكلّم في قالب الإفادة ما ينطق به تحاشياً عن وصمة اللّاغية" (السكاكي و زرزور، 1987)، ونجده كذلك يؤكّد على ضرورة مراعاة المتكلّم لحال السّامع، وإعطائه مقدار ما يحتاج من الفائدة؛ إذ إنّ السّامعين متفاوتون في الحاجة إلى الفائدة والقدرة على استيعابها، فالمتكلّم "إذا اندفع في الكلام مخبراً، لزم أن يكون قصده في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك إفادته للمخاطب، متعاطياً مناطها بقدر الافتقار..." (السكاكي و زرزور، 1987). وهذا مبدأ آخر من مبادئ التّداوليّة، يسمّيه التّداوليّ (بول جرايس Paul Grice) حديثا بمبدأِ الكمّ.

ومن شروط نجاح التّواصل اللّغويّ وضوح الكلام وفصاحته، وخلوّه ممّا سمّاه السّكاكي (تعقيد الكلام)، وهو "أن يُعثِّر صاحبُه فكرَك في متصرّفه، ويشيك طريقك على المعنى، ويوعّر مذهبك نحوه، حتّى يقسّم فكرك،

ويشعّب ظنّك، على أن لا تدري من أين تتوصّل، وبأيّ طريق معناه يتحصّل" (السكاكي و زرزور، 1987). "كقول الفرزدق يمدحُ إبراهيمَ بنَ هشام بن إسماعيل المخزوميّ خالَ هشام بن عبدالملك:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً * أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

أي: وما مِثْلُ إبراهِيم في النَّاسِ حيٌّ يشبهه في فضائله غير مَلِكٍ أَبُو أُمِّهِ أبوه.

أصْلُ ترتيب الكلام: وما مثله في النّاس حيٌّ يقاربُه، إلاَّ مملَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوه، فقَدَّمَ وأَخَّرَ في الكلمات، فألْغَزَ إلْغازاً سَيِّئاً" (الميداني و المجذوب، 1996).

وفي المقابل يكون الكلام فصيحا محصّلا للفائدة ومؤدّيا للغرض منه، غير معقّد، ولا يكتنفه الغموض، "يفتح صاحبُه لفكرتك الطّريق المستوي، ويمهّده، وإن كان في معاطفَ نَصَبَ عليه المنار، وأوقد الأنوار، حتّى تسلكه سلوك المتبيّن لوجهته، وتقطعه قطع الواثق بالنّجح في طيّته" (السكاكي و زرزور، 1987).

4- خاتمة:

لقد قدّم علماء العرب القدامى عطاءات جمّة للفكر الإنسانيّ. وعند حديثنا عن التّواصل اللّغويّ، لا ينبغي أن نغفل ما توصّلوا إليه من أسرار عميقة حوله؛ ذلك أنّهم درسوه دراسة علميّة شاملة، إذ لم تخل دراساتهم - على اختلاف اختصاصاتها- من بيان دور المتكلّم في صياغة الخطاب وإنتاجه، والاعتداد بالسّامع في العمليّة الكلاميّة، إلى جانب الإلمام بكلّ العناصر الفاعلة في الإبلاغ، ومعيار الصّدق والكذب...، ومطابقة الخطاب لمقتضى الظّاهر ومخالفته...، وتلك أهمّ المسائل الّتي تقوم عليها اللّسانيّات التّداوليّة الحديثة. وقد كان لهم قدم السّبق في الاهتمام بالباثّ والمتلقّي، وجعلوا هذا الأخير شرطا مهمّا من شروط الفصاحة والبلاغة، واهتمّوا بالسّياق اللّغويّ وسياق الحال، وهو ما جعلهم يعرّفون البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

وإذا تتبّعنا قضيّة التّواصل بين القديم والحديث، وجدنا التّقارب الشّديد لمفهوم التّواصل الحديث مع مفهوم البلاغة عند العرب، إذ إنّها باختصار تُعرَّف لغةً بـ "الوصول والإيصال والانتهاء" (ماهر و حميد، 2008)، واصطلاحا بأنّها "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ" (الرماني و خلف الله، 1976).

ولأنّ كلّ سيرورة تواصليّة تستلزم نقل رسالة من مرسل إلى مرسل إليه، يملكان بشكل مشترك (جزئيّا على الأقلّ) الشّفرةَ الضّرورية لتداول الرّسالة، لم ينظر السّكّاكيّ وغيره من البلاغيّين العرب إلى التّواصل اللّغويّ على أنّه يهمّ المرسل فقط، بل اهتمّ بالعلاقة بين أطراف التّواصل: المرسل، الرّسالة، المتلقّي، والمقام، وهذا ما يؤكّده (سعيد بحيري) بقوله: "إنّ العلاقة بين المرسل والمتلقّي الّتي حرصت البلاغة على إبرازها، قد وجدت طريقها إلى نظريّة التّواصل، وبالتّالي إلى التّداوليّة الّتي عنيت بالسّياقات المختلفة وأطراف الموقف التّواصليّ عناية كبيرة" (بحيري، 2004).

وقد جعل البلاغيّون العرب (العبارة اللّغويّة) موضوعَ دراسة للتّواصل، وركنا من أركانه، يتضمّن مقاما ومخاطبين، ورأوا أنّه لا يجري بواسطة مفردات أو جمل، بل بواسطة نصوص، باعتبارها وحدة تواصليّة متكاملة، كما أنّ نجاح الخطاب عندهم محكوم بخضوعه لمجموعة من الضّوابط، يؤدّي اختلالها إلى تشويش، أو إخفاق تامّ، وهذان الضّابطان هما الإفادة والوضوح.

فقد نال التّواصل عناية كبيرة من قبلهم، ظهرت في مباحثهم البلاغيّة حين دراستهم اللّغةَ العاديّة أو الأدبيّة وهي تؤدّي وظائفها في المجتمع، حيث نبّهوا إلى أهمّيّتها في إنجاح العمليّة التّواصليّة الّتي تنتقل بها، أو بواسطتها المعلومات والخبرات بين فرد وآخر، أو بين مجموعة من النّاس، وفق نظام من الرّموز، وخلال قناة أو قنوات، أو طرق، تربط بين المصدر أو المرسِل، والمتلقّي أو فئة المتلقّين.

ولا شكّ أنّ اهتمامهم بالبعد التّواصليّ أمر طبيعيّ؛ ذلك أنّ الأمّة العربيّة أمّة كلام، وأنّ البيئة العربيّة الّتي كانت تُعلي من شأن الشّعراء وتحتفي بهم هي ولا شكّ حَريّة بأن تقدّم لنا أسمى نماذج التّواصل اللّغويّ بكلّ عناصره، يُضاف إلى ذلك أنّ البلاغة العربيّة كانت أساسا لخدمة القرآن الكريم، الّذي يضمّ جميع عناصر العمليّة التّواصليّة، من خلال بيان فصاحته وأسراره، وما يتضمّنه من حجج دامغة وبراهين قويّة، جاءت لإقناع المخالفين وبيان الطّريق المستقيم. ثمّ توسّع اهتمام علمائنا ليشمل الخطاب النّبويّ الشّريف وكلام العرب، وحاولوا استكناه أسرار ذلك كلِّه، فأتوا على قضايا تواصليّة مهمّة، ما يزال الباحثون يستفيدون منها حتّى اليوم.

لذلك فإنّ أهمّ الآراء المتعلّقة بالتّواصل اللّغويّ هي تلك الّتي قدّمها علماء البلاغة؛ إذ إنّهم قد رصدوا مواضع الإبداع في العمليّة الكلاميّة، من خلال العلاقة التّفاعليّة الّتي تربط المتكلّم بالمخاطَب، وكثيرة هي المواضع الّتي تُبرِز اهتمامهم بهذا الطّرف اللّغويّ في علوم البلاغة المختلفة.

وإنّ أهمّ ما يُظهر اهتمامهم بعناصر التّواصل اللّغويّ وضعُهُم الحدودَ والمصطلحاتِ البلاغيّة، مثل: البلاغة والفصاحة. والمتأمّل في تعاريف هذه المصطلحات -الّتي عُدّت الرّكائز الأساسيّة للدّرس البلاغيّ القديم- تتجلّى له عنايتُهم بمكوّنات العمليّة التّواصليّة.

وإذا كانت وظيفة اللّغة الأساسيّة هي التّواصل ضمن مجتمع واحد، أو من مجتمع إلى آخر، فإنّ علماءنا القدماء قد عنوا بالنّظام التّواصليّ أكبر عناية، وأولوه قسطا وافرا من البحث والدّراسة، مبيّنين أهمّيّته في الحياة الإنسانيّة.

5- المصادر والمراجع:

الكتب:

- أبو الحسن علي بن محمد، السيد الشريف الجرجانيّ (ت816هـ)، الحاشية على المطوّل: شرح تلخيص مفتاح العلوم في علوم البلاغة، قرأه وعلّق عليه: رشيد أعرضي، ط01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلميّة، 1428هـ/2007م.

- أبو عبد الرّحمان الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ البصريّ (المتوفّى: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السّامرائيّ، دط، بيروت، لبنان، دار ومكتبة الهلال، 1993م، ج07.

- أحلام ماهر محمد حميد، صيغة فعل في القرآن الكريم (دراسة صرفية دلالية)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2008م، ص117.

- بطرس البستانيّ: محيط المحيط ، دط، بيروت، لبنان، 1987م، مكتبة لبنان، دت.
- زين الدّين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفيّ الرّازيّ (المتوفّى: 666هـ)، مختار الصّحاح، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، ط05، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية، الدّار النّموذجيّة، 1420هـ/ 1999م.
- سعيد حسن بحيري، علم لغة النّصّ: المفاهيم والاتّجاهات، ط01، القاهرة، مصر، مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع، 2004م.
- شهاب الدّين أحمد بن يوسف بن عبد الدّائم المعروف بالسّمين الحلبيّ (المتوفّى: 756هـ)، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، ط1، دمشق، سوريا، دار القلم، 1994م، ج 01.
- طه عبد الرّحمان، التّواصل والحجاج، دط، المغرب، مطبعة المعارف الجديدة الرّباط، 1994م.
- عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميدانيّ الدّمشقيّ (المتوفى: 1425 هـ)، البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنونها، تحقيق: محمد المجذوب، ط1، دمشق، سوريا، دار القلم، 1416هـ/1996م، ج01.
- عبد العزيز شرف، نماذج الاتّصال في الفنون والإعلام والتّعليم وإدارة الأعمال، ط01، القاهرة، مصر، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 2003م.
- علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرّمّاني المعتزليّ (المتوفى: 384هـ)، النّكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (16)]، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ط03، القاهرة، مصر، دار المعارف، 1976م.
- عمر أوكان، اللّغة والخطاب، ط01، بيروت، لبنان، إفريقيا الشّرق، 2001م.
- قادة عقاق، السّيميائيّات العربيّة: قراءة مقارنة بين منجزات تراثيّة وطروحات غربيّة، ط01، عمّان، الأردن، مركز الكتاب الأكاديميّ، 2018م.
- مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفى: 817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسُوسي، ط08، بيروت، لبنان، مؤسسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/2005م.
- محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاريّ الرويفعيّ الإفريقيّ (المتوفّى: 711هـ)، لسان العرب، ط03، بيروت، لبنان، دار صادر، 1414هـ/1994م، ج11، ص726.
- محمد نور الدّين أفاية، المتخيّل والتّواصل، ط01، بيروت، لبنان، دار المنتخب العربي، 1993م.
- معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، ط01، بيروت، لبنان، دار الفكر اللّبنانيّ، 1995م.
- يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط02، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1407هـ /1987م.

المقالات:

- بوبكر جيلالي، الاختلاف والتّواصل والحوار والتّسامح "من سنن الكون وشروط توازنه"، مجلّة الكلمة، منتدى الكلمة للدّراسات والأبحاث، لبنان، المجلد: 21، العدد 84، (30 يونيو/حزيران 2014م).

- سعيد بنكراد، إستراتيجيّات التّواصل من اللّفظ إلى الإيماءة، مجلّة علامات، المغرب، العدد: 21، 2004م.
- عمر أوكان، اللّسانيات والتّواصل، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد: 36، 2000م.

مواقع الأنترنت:

- محمد أحمد إسماعيل المقدّم، تفسير القرآن الكريم، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشّبكة الإسلاميّة http: //www.islamweb.net.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

حميدات خالد، (2023)، **قراءة التّراث البلاغيّ العربيّ في ضوء نظريّة التّواصل اللّغويّ : يوسف بن أبي بكر السّكاكيّ أنموذجا** ، مجلة أنسنة للبحوث و الدراسات، المجلد 14 (العدد 2)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 263-274.